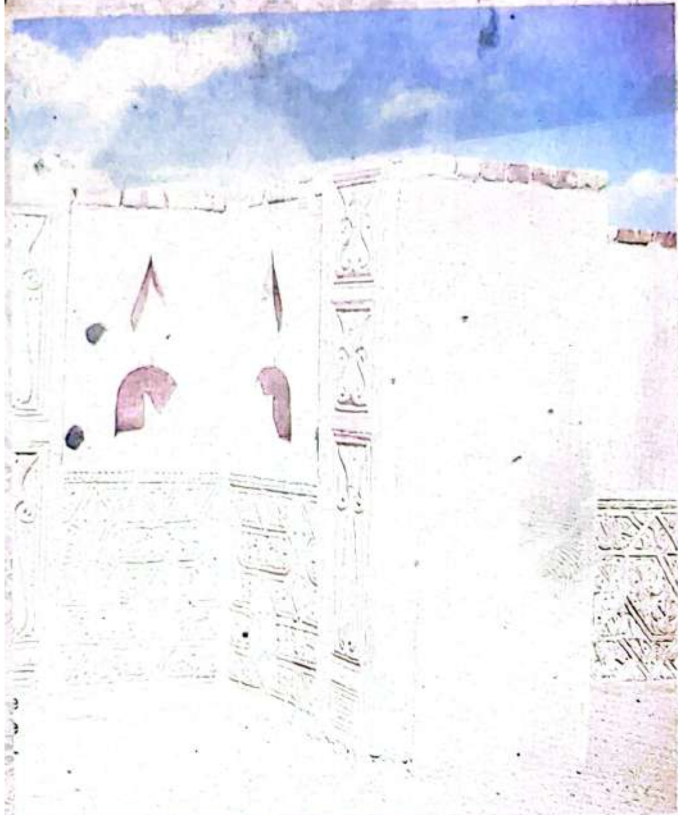


الأعمال الدينية

الهيئة المصرية العامة للكتاب

خالد محمد خالد

بين يدى عمر

مكتبة الأسرة
1997
١٩٩٧

مهرجان القراءة للجميع

أيأذنُ أميرُ المؤمنين..؟

في هذا الكتاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

لست أكتب تاريخاً لعمر

ولا أَزيد الناس معرفة بعظمته وشَأوِه . .

ولا أُزكّى على الله نفسى بالكتابة عن رجل أَحبَّه الله واصطفاه . .

إن المحاولة التى أنا بصددها ، أكثر تواضعاً من هذا كله . .

إنى أُصغىِ إلى أمير المؤمنين ، لا أكثر . . وأتطلّع إليه ، لا أقل . .

وفى دروب التاريخ سنحاول – القراء وأنا – أن نلتقى بالرجل الذى لم تُسعدنا المقادير باللقاء معه فى دروب المدينة . حيث كانت سجاياه وعَظمتُه تملأ الزمان والمكان بما لا عينٌ رأت ولا أُذن سمِعت من عدالة الحاكمين ، وزهد القادرين ، وإخبات الناسكين ،وقوة الوُدَعاء الراحمين ، ووداعة الأقوياء المتقين . ! !

أجل ؛ هذا ما نحاول فى هذه الصفحات بلوغَه . . أنْ نعيش لحظات فى رِحاب عمر ، ونأخذ من المشهد المكتوب عِوَض ما فاتنا من المشهد الحىّ . ونُلقىَ السمع والبصر والفؤاد بين يدى هذا القوىّ الأمين . والمعلم الذى ليس له

بين المعلمين نظير ، ونقضى فى مَعِيَّته لحظات ترفع من قدر حياتنا .

* * *

و « مَعِيَّةُ » أمير المؤمنين ، ليست مثل « مَعِيّات » غيره من الأمراء ، والحاكمين .

إنها شىء مختلف جداً . . فلا مكان فيها لأطايب الطعام ، ومَناعم الشراب ، ومَباهج الحياة . . لا مكان للفُرُش المرفوعة ، ولا للأكواب الموضوعة ، ولا للنمارق المصفوفة ، ولا للزَّرَابِىِّ المبثوثة .

لا مكان للراحة . . لا مكان للزهو . . لا مكان للزُّلفَى . .

من أجل هذا ، كان الاقتراب من هذه « المعيَّة » رهيباً ، بقدر ما هو حبيب إلى النفس ، وبقدر ما يُفضى إليه من شرف عظيم .

و « عمر » من الطراز الذى تغمرك وأنت تقرأ تاريخه المكتوب كلُّ الهيبة التى تغمرك وأنت تجالس ذاته وشخصه .

والمشهد المسطور من تاريخه ، لا يكاد يختلف عن المشهد الحى إلا فى غياب البطل عن حاسة البصر . .

أجَلْ . . عن حاسة البصر وحدها . . أما الأفئدة . . أما البصيرة ، فتحسّ وهى تطالع سيرة عمر أنها تُعايشه ، وتجالسه ، وترى رَأْىَ العين جلال الأعمال ، ومَناسِكَ البطولات التى يتناولها بيد أستاذ عظيم ، جدَّ عظيم . .

* * *

ولكن على الرغم مما تفرضه صحبة « عمر » من حرمان وشظَف . . فليس على ظهر الأرض بهجة ، ولا متعة ، ولا نعمة تفوق مباهج ومناعم هذه الصُّحبة بحال . . !

فالرجل الكبير فى بساطة ، البسيط فى قوة ، القوى فى عدل ورحمة لا يستريح ولا يترك الذين معه يستريحون ، ولكنه يمنحهم بدلا من الراحة المفقودة ، أعظم ما فى الحياة من سؤدد ، وغبطة ، وتفوُّق

هذا هو أمير المؤمنين ، الرجل الذى أنجبته البشرية ورباه الاسلام .

هذا هو الحاكم المؤمن الذى إذا ذُكر رؤساء الدول والحكومات منذ فجر التاريخ الإنسانى إلى يوم الناس هذا ، كان أعظمهم ، وأبرَّهم ، وأزكاهم – من غير مبالغة – أية مبالغة . . ! !

هذا هو الناسك الذى تفجَّر نُسكه حركة ، وذكاء . . . وعملا . . وبناء . .

هذا هو المعلم الذى صحح مفاهيم الحياة ، وأفرغ عليها نوراً من روحه ، وكساها عظمة من سلوكه ، وكان للمتقين إماماً . . ! !

* * *

تُرى ماذا يذكر التاريخ اليوم من نبئه العظيم ، وبم يَلهج الناس من سيرته الفاضلة ؟ ؟

هل يذكرون فتوحاتِه على كثرتها . . ؟ ؟ هل يذكرون انتصاراته على روعتها . . ؟

إن سلوك أمير المؤمنين ، يشغل التاريخ ويشغل الناس عن كل شىء سواه .

• ودائماً ، وأبداً ، تُطلّ على الحياة صورة ذلك الإنسان الإلهى الذى يجرى فى وقت الحر القاتل وراء بعير من أموال الأمة مخافة أن يَنِدَّ ويضيع ، فيحاسبه الله حساباً عسيراً . . ! !

• أو الذى يصطحب زوجته فى الهزيع الأخير من الليل حاملا على

كتفيه وفى يديه جراب دقيق ، وقربة الماء ، ووعاء السمن ، حيث تتولى زوجته أمر سيدة غريبة أدركها المخاض وحيث يجلس هو خارج الكوخ يُنضج لها طعام الوالدات . . !

• أو الذى يتأخر عن خطبة الجمعة ، ثم يجىء مهرولا فى بُردة بها إحدى وعشرون رقعة ، تحتها قميص لم يجفّ بعد من البلل ، ثم لا يكاد يصعد المنبر حتى يعتذر للناس عن تأخره فيقول . « حبَسنى عنكم قميصى هذا . . كنت أنتظره حتى يجفّ ، إنه ليس لى قميص غيره . . ! ! »

• أو الذى يستقبل هدية من الحلوى أرسلها إليه عامله على أذربيجان فيسأل الرسول الذى جاء بها : أوَ كُلُّ الناس هناك يأكلون هذا . . فيجيبه الرجل قائلا : كلا يا أمير المؤمنين ، إنها طعام الصَّفْوة . . ! ! فيختلج عمر ويقول للرجل : « أين بعيرك . . احمل هديتك وارجع بها إلى صاحبها وقل له : عمر يأمرك ألا تشبع من طعام حتى يشبع منه قبلك جميع المسلمين . . ! ! »

• • •

هذا هو عمر فى ذاكرة التاريخ ، وفى ضمير البشرية .

هذا هو منارة الله فى الدنيا ، وهديته إلى الحياة .

وعلى مائدته الخالية من أطايب الطعام ، الحافلة بأطايب العظمة ، سنقضى أسعد وأرغد لحظات حياتنا . . ! ! !

خالد محمد خالد

الفصل الأول

ليوسعنهم خيرا

كانت مكة تُودع ضيوفها الذين وفَدوا عليها من شتَّى بقاع الجزيرة ليشهدوا مهرجان «عكاظ» حيث تزهو القبائل بشعرائها المتفوقين، وحيث تزدان حَلْبة المصارعة بفتيان قريش الأشداء يعرضون ألعابهم فى فن عظيم.

كانت مكة تودع أولئك الأضياف الذين شدُّوا الرحال راجعين إلى بلادهم، ونُجوعهم – عدا نفر قليل منهم استهواهم البلد الحرام، فتهيبوا الظَّعْن، وآثروا المكث.

من هؤلاء النفر، ذلك الشيخ الذى يقطع الطريق وَهْناً، مُيمماً وجهه شَطْر دار الندوة ليقضى بها ساعة الأصيل مع رفاقه فى الشيخوخة والذكريات..!

وإنه لَماضٍ فى سبيله، إذ لقيه فى الطريق أعرابى قريب العهد بمكة يعمل راعياً لدى واحد من سادات قريش..

ولا يكاد الفتى يبصر الشيخ أمامه حتى تتحدر الكلمات من بين

شفتيه فى حَمِيَةٍ وعجَلَة .

– هل علمت النبأ العظيم يا أخا العرب .

– أى نبأ يا بنى . . . ؟

– ذلك الرجل الأعْسَر اليَسَر . .

ويتساءل الشيخ قائلا :

– الذى كان يصارع فى سوق عكاظ . . ؟

– أجل . . . هو . .

– ما باله يا فتى . . ؟

– لقد أسلم ، واتبع محمداً . .

ويُفيق الشيخ من الدهشة ، ويقول وقد كست وجهَه حكمةُ السنين :

– « أمَا والحق ، لَيُوسِعَنَّهم خيراً . . أو لَيُوسِعَنَّهم شراً » . . ! !

• • •

أما الأعْسَر اليَسَرَ الذى كان يُصارع فى سوق عكاظ ، فهو عمر . .

وأما نبوءة العربى ، فقد جاءت كفَلَق الصبح ، وضوء النهار .

ومن ذلك اليوم ، لم يعد الأعسر اليَسَر . . « عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى » ، من بنى عَدِىّ . . لم يعد ذلك الذى يُصارع الأشداء فى سوق عكاظ ، بل صار « الفاروق عمر » ، الذى سيصارع الباطل فى جزيرة العرب ، ، أوّلَ النهار . . وفى كل الدنيا ، آخِرَه . .

سيكون الرجل الذى يملأ أرض الناس عدلا ، وأمْناً ، ورحمة ، وهُدى . .

سيكون « المعلِّم » الذى يَبلُغ الرشد الإنسانى على يديه رُشدَه . .

و « الأستاذ » الذى تجلس الدنيا عند قدميه . . !

أجل . . سيكون الإنسان الذى يرفع الله به من قَدْر البشَر ، وقَدر الحياة .

• • •

« لَيُوسعنهم خيراً ، أو لَيُوسعنهم شرًّا » . . ! !

كيف أدرك الشيخ العربى ، مصاير الأمور على هذا النحو السريع القَطِن . . ؟

الحق أن الذى قُدر له أن يرى « عمر » فى شبابه ولو رؤية عابرة ، قادر على أن يردد نفس النبوءة ، ويستشرف الغد الذى استشرفه الشيخ فى غير عَناء .

« فعمر » ، ذلك الرجل القوى ، المجدول اللحم ، المشرب بالحمرة ، الغليظ القدمين والكفَّين ، العريض المنكبين ، الفارِهُ الشامخ العملاق ، الذى لم يَسِر قط مع قوم إلا كان أعلاهم رأساً من فَرط طوله .

الرجل الذى كان كما نَعتُوه : « إذا تكلم أسمع وإذا مَشَى أسرع ، وإذا ضرب أوجع » .

« عمر » الذى لم يَخف قط فى حياته أحداً ، ولم يختلج جنانه الصامد أمام رهبة أو فزع .

« عمر» الذى ورث من طباع أبيه ، صرامة لا تعرف الوهْن ، وحَسْماً لا يُورجحه التردد ، وتَصميماً لا يقبل أنصاف الحلول .

« عمر » هذا . . من اليسير جداً استكشاف حقيقته ، وقراءة دخيلته والتنبؤ بمصاير الأمور بين يديه ، فإما أقصى اليمين ، وإما أقصى اليسار .

إنه أبعد الناس عن ازدواج الشخصية ، وتعددها . .

ومركز الثقل فيه ، لا تتناوَبه أشتاتُ نفس مُوزَّعة ، ولا تميل به أهواء متنافرة ، إنما تحتشد به شخصية متّسقة حافلة .

فحيث يوجد « عمر » توجد كل شخصيته ، وكل إرادته ، وكل منهجه .

لا ينقسم على ذاته أبداً . . ولا يضع إحدى قدميه هنا – وثانية القدمين هنـاك . .

إنه رجلٌ « جَميعٌ » تتحرك كل قُدراته فى دقة واتّساق . . يفوقان دقةَ الجيش المدرَّب واتّساقه . وليس لذرة واحدة فى كِيانه فرصة للتخلف . . أو للتلكُّؤ ، أو للنَّشاز . . !

إنها طبيعة فذَّة قلَّما تتكرر ، وقلما يكون لها فى الأعداد الهائلة من البشر نظير .

ولقد كان الرسول عليه الصلاة والسلام يدرك عظمة الطبيعة البشرية التى رُزِقها « عمر » . . وكان يعرف ما تنطوى عليه من أصالة واقتدار . . كما كان يعرف ما يتمتع به « عمرو بن هشام » من جاه ونفوذ .

من أجل هذا دعا ربه الكبير أن ينصر الإسلام بأحب الرجلين إليه – « عمر بن الخطاب » ، أو « عمرو بن هشام » . . .

ولقد ربح الإسلام أحبَّ الرجلين إلى الله ، وكان « عمر بن الخطاب » صاحب الفطرة القوية السويَّة الجيَّاشة . . ألقى ثقله كله فى كِفَّة التوحيد ، على حين ألقى الآخر ثقله فى كِفَّة الشرك . ولكن مصير الميزان تقرر فى نفس اللحظة التى أصبح فيها « عمر » قوة فى إحدى كفتيه ، واستبانَ غَدُ الإسلام كضوء الفجر منذ قال « ابن الخطاب » : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . !

يقول عبد الله بن مسعود : « ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر ، كان إسلامه فتحاً ، وكانت هجرته نصراً ، وكانت إمارته رحمة ، ولقد رأيتُنا وما نستطيع أن نصلى بالبيت حتى أسلم عمر » . . ! !

* *

هذا العنفوان الوثيق فى شخصية « عمر » . كان يبدو كما لو كان تطرفاً ، وتزمُّتاً، وغِلْظة . .

فى الجاهلية ، كانت مُحادَّته للإسلام ، تكاد وحدها تعدل أذى قريش . . وكان تشبثه بموقفه يَدحَض أى أمل فى عُدوله عنه ، حتى لقد صوَّر أحد المسلمين يومئذ يأسه من إسلام « عمر » بقوله : « إنه لن يسلم حتى يُسلم حِمار الخطاب » . . ! !

وفى الإسلام ، صارت مُحادَّته للوثنية تكاد تعدل وحدها مقاومة الإسلام بأسره ، وصارت صرامته العادلة العاقلة مضرب الأمثال ، حتى لقد كان الوحيد بين الصحابة الذى يُكثر من مناقشة رسول الله ، والذى يقترح أحياناً على الرسول ، فيُمضى رسول الله ما اقترح ، ويَسن ما ارتأى . وكان شديدَ الوطأة على خصوم الإسلام بصورة تفرَّد بها عمن سواه .

بَيْد أن ذلك لم يكن من « عمر » تطرفاً ، ولا تزمتاً ، ولا قسوة . إنما كان تفوُّقاً . .

ذلك أن الطبيعة التى كانت تحتشد مَواهبها وقُدراتها على هذا النَّسق الفذِّ الذى توفَّر « لعمر » ، لا يكون لصاحبها الخيار إلا فى مستوى هذا التفوق المهيمن العميم .

وهكذا كان « عمر » . .

رجل مُزَوَّد بطبيعة مشحوذة قوية ممتلئة . . طبيعة مستقيمة القصد ،

شديدة الأسْر، سَواء فى ضلالها وهُداها . .

وهى إذا اتخذت موقفاً ، تبلغ فيه المدَى . لا استجابة لنزعة الغُلوّ ، بل تحقيقاً لإمكاناتها الحافلة ، وتعبيراً تلقائيًّا عن تفوُّقها وامتلائها . .

إن ثَمَّةَ فارقاً كبيراً بين التفوق والتطرف . .

الأول ، يشبه النمو الطبيعى .

والثانى. يشبه مرض نمو العظام .

الأول تثمره خلايا حيّة عاملة ، وطبيعة سوية نامية ، والثانى عَرَض من أعراض العلة والسقم . .

والتفوق ، قوة عادلة تتضمن الحكمة ، ولا تستعلى على الخير ، أو تتوارى من الحق . .

وهكذا كان الذى مع « عمر » التفوق ، لا التطرف . . والقوة ، لا القسوة . .

وإن الظروف التى أزجَتْ إسلامه وأحاطت به لَتكشف جوهر طبيعته ، وتوضح هذا أوضح بيان . .

• • •

ذات يوم لاَهِب ، خرج من داره حاملا إصراره الحَرُور ، وسيفه الجسُور ، مَوَلياً وجهه شطر « دار الأرقم » حيث كان الرسول ونفر من أصحابه المؤمنين يذكرون الله هناك ، ويعبدونه .

وفى الطريق يلقاه « نُعيم بن عبد الله » فيرى ملامحه تنفجر بأساً ونقمة ، فيقترب منه فى وَجَل ويسأله :

– إلى أين يا « عمر» . . ؟

فيجيبه : « إلى هذا الصابئ الذى فرَّق أمر قريش وسفَّه أحلامها ، وعاب دينها ، وسب آلهتها فأقتله » . .

ويَذهل « نعيم » عن إحساسه بالموقف ، وبالخطر الذى ينجم عن معارضته لعمر ، فيقول له :

– « لبئس السعى سعيك ، وبئس الممشَى مَمْشاك » . . . !

ويخشى « عمر » أن يكون « نعيم » قد أسلم ، فيقول له :

– « لعلك صبأْت . . . إن تكن فعلتَ فواللّات والعُزّى لأبدأَنَّ بك » .

و « نعيم » يعرف تماماً أن « ابن الخطاب » يعنى ما يقول ، فيُنهى الحِوَار بعبارة تلوى زمام « عمر » ، إذ لا يكاد يحتمل وَقْعَها الشديد :

– « ألا فاعلم يا عمر أن أختك وزوجها – سعيد بن زيد – قد أسلما ، وتركا دينك الذى أنت عليه » . .

– أخته . . . ؟ ؟ فاطمة بنت الخطاب . . ؟ ؟

مالَه ولدار الأرقم إذن ، وقد اقتحم الخطر داره هو وَعَرِينه . ؟

وهكذا ، أغذَّ السير إلى دار خَتَنِه « سعيد » . .

• • •

فى جوْف الدار كان « سعيد بن زيد » ، وزوجته « فاطمة بنت الخطاب » و « خبّاب بن الأرتّ » ، وملء أيديهم صحيفة فيها من وحى الله آيات يتلونها ويتدارسونها .

وقَرع الباب قرعاً رهيباً . .

وقيل : مَن ؟ . قال : عمر . .

أمّا خباب ، فسارع إلى مخبأ قَصِىٍّ فى الدار ، سائلا الله حفظه وغوثه . . ! !

وأما أخت « عمر » وزوجها ، فقد استقبلاه لَدَى الباب يغشاهما ذهول المفاجأة ، ولم تنس بنت الخطاب فى هذه الغمرة الداهمة ، الصحيفة الكريمة التى بها آى الله فخبأتها تحت ثيابها .

قال « عمر » والهول ينقذف من عينيه : ما هذه الهيَنمة التى سمعتُ عندكم . . ؟

أجابا : لا شيء ، إنها نجوى وأحاديث . .

قال لهما : سمعت أنكما صبأتما . . .

قال سعيد : « أرأيت يا عمر إن كان الحق فى غير دينك » . ؟ ؟

ولم يمهله « عمر » حتى يتم حديثه ، فوثب عليه فى عنفوان لَجِب ، وأخذ برأسه يجرّه ويلويه ، ثم ألقاه أرضاً ، وجلس فوق صدره . . وحين تقدمت أخته لتدافع عن بَعْلها أصابتها منه لطمة أدْمت وجهها فصاحت به وكأنها بُوقٌ سماوى يُدوِّى ويصلصل :

— : « يا عدو الله ، أتضربنى على إيمانى بالله الأحد ؟ ألا ما كنت فاعلاً فافعل ؛ فإنى أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » . . !

والآن ، انتبهوا جيداً ، فإن اللحظة الحاسمة تدق ، مُؤْذنة بالتحول وكاشِفةً عن الجوهر النقى القوى الذى صُنعت منه فِطرة هذا الرجل الكبير .

فبينما هو فى بأسه الشديد ذاك ، يجابهه الحق عالى الصيحة ، فيلين له « عمر » ويتخشَّع . .

ذلك أن الكلمات المندلعة من إصرار أخته كانت تحمل كل رنين الصدق .

هذا الرنين الذى يعرفه ويميزه من له فطرة كفطرة « عمر » ، تماماً مثلما يدرك الفارس الأصيل المجرب ، أصالةَ الخيل من صهيلها . . ! !

ولو كانت قوة « عمر » قوة عناد وقساوة ، لتمادت فى ضَراوتها ولبلغت من الموقف ما تريد .

أمّا وهى قوة تفوّق وبطولة ، فقد استجابت من فورها لهذا الجلال المتبدى أمامها ، لهذا الرأس العزيز المرْتفع ، رأس « فاطمة بنت الخطاب » المؤمنة بالله وبرسوله . . ولهذه الكلمات المتوهجة بنور الحق الصادحة برنين الصدق .

وفجأة ينهض من فوق صدر « سعيد » . ويبسط يده الضارعة إلى أخته ، سائلا إياها أن تعطيه الصحيفة التى رآها تبرز من تحت ثيابها :

– هات هذه الصحيفة ، لأنظر ما فيها .

وتجيبه أخته : « كلا ، إنه لا يمسُّه إلا المطهَّرون ، اذهب فاغتسل وتطهر »

ويمضى « عمر » كالأنفاس الوديعة الهادئة ، هذا الذى كان من لحظات إعصاراً يُدمدم . . ويعود ولَحيته تقطر ماء ، وتعطيه أخته الصحيفة ، ويقرأ :

« بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

« طه . مَا أَنْزلْنا عليكَ القُرآنَ لِتشْقَى ، إلاَّ تَذْكِرةً لِمنْ يَخْشَى . تَنْزِيلاً مِمَّنْ خلَقَ الأرْضَ والسَّماواتِ العُلَى . الرَّحْمٰنُ عَلَى العَرْشِ اسْتَوى . لَهُ مَا فى السَّماواتِ ومَا فى الأرْضِ ، ومَا بَيْنهما ومَا تَحْتَ الثَّرَى . وإنْ تَجْهَرْ بالقَوْلِ فإنَّه يعْلمُ السِّرَّ وأخْفَى . اللهُ لَا إلٰهَ إلاَّ هُو لَهُ الأسْماءُ الحسْنَى » .

ثم يتابع التلاوة فى خشوع وتبتُّل :

« إنَّنِى أنَا اللهُ لا إلٰهَ إلاَّ أنَا فاعْبُدْنى وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِى ، إنَّ الساعة آتِيَة أكادُ أخفيها لتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بما تَسْعَى ، فلا يَصُدَّنَّك عنها من لا يُؤْمِنُ بها واتَّبعَ هَوَاهُ فتردَى » . .

ويعانق عمر الصحيفة ثم يقبِّلها . وينهض واقفاً ويقول :

« لا ينبغى لمن هذه آياته ، أن يكون له شريك يُعبد معه ، دلُّونى على محمد » !

وهنا يبزغ « خبَّاب بن الأرت » من مخبئه ، ويهرول صوب عمر صائحاً : « أبشر يا عمر ، فو الله لقد استجيب دعاء الرسول لك » .

ويتخذ عمر سبيله إلى الصفا حيث دار الأرقم ، وهناك بين يدى رسول الله عليه الصلاة والسلام يدخل فى الدين الحق ، ويكبر المسلمون تكبيرة تهتز لها مكة جميعاً . . !

* * *

فى مثل لمح البصر ، تمَّ هذا التحول الهائل العظيم ، وانتقل إلى أقصى رحاب الهدى ، رجل كان يقف فى أقصى مجاهل الوثنية .

والطبيعة القوية التى كانت تحتشد لتحرس آلهة قريش من زحف الدين الجديد ، وثَبت الآن وثبة فى الضياء إلى الجانب الآخر من أرض المعركة بكل بأسها وبكل قوتها ، إبَّان لحظة حاسمة أجاد توقيتها وأحسن إعدادها قدَرٌ حكيم عليم . . !

لقد كان « عمر » يذود عن مقدسات الجاهلية ، يوم كان يؤمن أنها حق . .

وهو الآن وقد أسلم وجهه لله ، سيضع كل حياته وقوته فى خدمة دين ، آمن أنه الحق . .

ذلك أنه رجل يسير وَفق إيمانه واقتناعه ، لا وَفق هواه . .

بيد أن إيمانه الأول وإيمانه الأخير لا يستويان .

فإيمانه القديم ، إيمان لا برهان له — برهانه التقليد الذى يحجب عن العقل ضوء الحقيقة ، ويحرم القلب من بهجة الصدق .

أما إيمانه الجديد فمعه برهان . أىّ برهان . . ! !

• إن الله الذى يعبده اليوم ليس من حجر ولا من مَدَر . إنما هو نور السماوات والأرض ، على كل شىء قدير ، وبكل شىء عليم .

• والداعى إلى الدين الجديد ، ليس واحداً من طراز أولئك الكهنة الذين يرتزقون بالأصنام ، ويستمدون سلطانهم من جهالة الناس وترويج الأساطير . . إنما هو « محمد » الذى لم يكن صدقه ولم تكن أمانته موضع ريبة أو شبهة طوال الأربعين عاماً التى قضاها بين قومه عابداً ، قانتاً ، طاهراً ، باهراً .

• وزملاؤه الجدد ، إخوانه فى هذا الدين ، ليسوا على شاكلة الآخرين الذين لا همَّ لهم سوى اللهو واللعب ، والميسر والضياع .

إنما هم رعيلٌ عظيم وَضع وِزره ، ونَضا عن نفسه غرور الحياة الدنيا ، وتهيأ لرسالة كبرى وجهاد عظيم .

أجل . . إن الناس الذين هنا . مع محمد رسول الله ، قد وجدوا غرَضاً عظيما يَحيَوْن من أجله . . . . أما الآخرون الذين خلَّفهم « عمر » وراء ظهره فيتكفأون على موائد الميسر يزدادون بها سفاهة ، أو يتحلَّقون حول الأزلام يستفتونها فى حظوظهم العاثرة . . . أو يطوفون حول أصنام من حجارة نحتوها بأيديهم ثم خرُّوا لها سُجَّداً .

هنا إيمان حق ، معه من الله برهان .

هنا إيمان يرفع الرءوس عالية . ويصل الإنسان بالله دون ما حاجة إلى وسيط أو شفيع .

وطبيعة كطبيعة « عمر » ، ترفض التبعية ، وتستعلى على الإذعان والرضوخ ، ليس لها مجال حيوى ولا مُناخ طبيعى إلا فى دين كهذا الدين حيث يقف الناس سواسية كأسنان المشط ، وحيث أكرمُهم عند الله أتقاهم ، وحيثُ يَعبِقُ الطهر ويتضوَّع الحق ، وحيث يتلو « محمد » آيات ربه فتتبدَّى من خلالها مَعالم الحياة الوافدة ، والمصاير الواعدة وتسمع الألباب فيها صلصلة الحقيقة ، وتجد الأفئدة معها بَرْد اليقين . . ! !

• • •

إن القوة نفسها والأصالة نفسها ، تعملان فى الطبيعة الفريدة « لعمر » بعد أن صار الإسلام له ديناً . ولكن هذه الطبيعة بعد الإسلام تتفوق تفوقاً بعيداً عنها قبل الإسلام . ذلك أنها وَجدت نُهاها ، وهُداها ، ولم يعد مجَالها تلك الأصنام الهامدة حول الكعبة ، أو تلك الشئون الضحلة لحياة مكة ، بل تعلقت هذه الطبيعة بالسماء وبالأرض جميعاً ، وصار موضوع نضالها ديناً يدرك بفطنته المشرقة أنه لن يقتصر على أرض الرمال ، والإبل ، والشِّعر ، بل سيَزْحف مشرِّقاً ومغرِّباً حتى يغمر العالمين . . ! !

من أجل هذا يبدأ القلق الذكى فى الطبيعة العمرية من أولَى لحظات إسلامه . فيقول لرسول الله عليه السلام :

— « ألَسْنا على الحق فى مماتنا وَمَحيانا . . ؟ ؟ » .

ويجيبه الرسول : « بلى يا عمر . والذى نفسى بيده إنكم لعلىَ الحق إن متم وإن حييتم » .

يقول « عمر » : « ففيم الاختفاء إذن . . ؟ والذى بعثك بالحق لَتخرجَنّ ، ولنخرجن معك » .

ويخرج الرسول والمسلمون معه فى صَفَّين . « عمر » فى صف ، و « حمزة » فى الصف الآخر

وبهذه الخطوات التى استحثّها « ابن الخطاب » ، بدأ الزحف الطويل المبارك الذى استمر ألفاً وأربعمائة عام . ولا يزال . . ! !

إن الرجل الذى جاء منتضياً سيفه ليقتل رسول الله ، قد تحوَّل فى لحظات سعيدة إلى مؤمن بالله وبرسوله . فماذا عساه يفعل الآن . ؟

ما الامتداد الذى ستواصل طبيعته المسير فيه .

وما ردُّ الفعل الذى سيكيف وجهتها الجديدة . ؟

إن خواطره السريعة لَتُهِلُّ . . وكأنها تتحرك وَفق « خارطة » مفصلة قد وُضعت سَلفاً . .

ولسوف يُتابع عمر « المسلم » أداء للمهمة التى بدأها عمر « الوثنى » ولكن فى مستوى أعلى ، وغاية أرفع . .

أجل ، لقد خرج من داره مُنتضياً سيفه قاصداً دار الأرقم ليصرع الباطل .

حسن . فليمض لغايته ، وليُواصل مهمته . . غير أنه الآن لن يصرع الحق الذى كان يتوهمه باطلا . . بل سيصرع الباطل الذى طالما توهمه حقاً . . !

سيصرع الباطل الذى هو باطل ، والذى انخدع « عمر » عن زَيفهِ وحقيقته فترة من الزمان .

وإنه الآن ، وقد كُشِف عنه غطاؤه ، لَيدوى بصوته الجسور :

— « والله ، لن أترك مكاناً جلست فيه بالكفر إلا جلستُ فيه بالإيمان » . . !

وإن مع طبيعته من الذكاء والمقدرة ما يجعلها مُهيأة للعمل دوماً ، واضعة عينيها على الهدف أبداً .

وهو لهذا وبهذا ، رجل لا يعرف أنصاف الحلول ، ولا ينام على الضيم لحظة من نهار أو مساء . . والضيم عنده أشمل وأعمّ من أن يكون رَهَقاً ينزل به ، أو خسفاً يُسامُه . . والضيم أيضاً أن يعجز عن تحقيق ذاته ، وإنجاز مشيئته ، وبلوغ الأمر الذى يريد

وهكذا رأى من الضيم أن يترك معالم جاهليته تعيش ولو خابية كابية ، ومن ثمّ فإن آثار قدميه فى طرقات مكة حيث كان يَذرعُها منددًا بالإسلام ، ومتعقباً ذويه ، لا بد أن تذوب وتتلاشى فى خطواته الجديدة الثابتة التى سيذرع بها الطرقات نفسها مُسبحاً بحمد الله ومقدِّساً له . .

وكل مكان رفع فيه عقيرته لاهجاً بأصنام قريش . لابد أن يجلجلَ فيه بـ « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » . . ! !

أجل ، سيتعقَّب « عمر » كل حركاته ، وكل كلماته ، وكل خلجاته التى ظلت تحمل سخريته بدين الله مدى ستة أعوام ، منذ بدء الرسالة حتى يوم إسلامه . .

سيتعقبها فى كل مظانها ومَواطنها ، وسيضع مكان كل سيئة حسَنة .

سيقتلع جميع الأشواك التى ملأ بها طريق « محمد » وصحبه ، وسيغرس مكانها أزاهير . . سيزرعها حباً ، وتفانياً ، وسيشترى أَمْنَ هذا الدين بحياته ، جميع حياته . . ! !

إن طبيعته تنادى الزمان والمكان ، بل تُلغيهما إلغاء لتظل لها سيادتها وتفوقها . فإذا أخطأ عمر فى زمان ما ، فى مكان ما . . ثم أراد أن يصحح خطأه ، فليس يكفى فطرتَه الفذة النادرة أن تتجنب الخطأ . . بل هى تريد

اقتلاعه تماماً ، واقتلاع الزمان والمكان اللذين كانا للخطأ وعاء . .

ومن ثمَّ فهى تأبى إلا أن تعود للمكان نفسه ، ولو استطاعت لاستردَّت الزمان نفسه لتقول إن ذلك الخطأ لم يكن . ولا كان المكان الذى شهده ، ولا الزمان الذى احتواه . . ! ! !

من أجل هذا مضى إلى كل مكان جلس فيه بالكفر . فجلس فيه بالإيمان – أكان ذلك كافياً . . ؟

لا ، فهناك عمل كثير وقدير ، سيواصله عمر حتى يحسَّ أنه قد طهَّر نفسه من كل آثام جاهليته . .

فهو يذكر أن تمسكه السالف بدين قريش ، كان من أهم أسباب الاضطهاد الذى لقيه الرسول وصحبه . . واليوم وقد آمن ، فلا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى شدّ زناد المقاومة الإسلامية .

أجل بالأمس كانت وثنيته من الأسباب التى حملت المسلمين وهم قلة ، على الفرار بدينهم إلى « دار الأرقم » حيث يعبدون الله خُفْية . .

واليوم ، لا بد أن يكون إسلامه عاملا حاسماً فى الجهر بالدعوة ونبذ التخفِّى والمداراة

وإنه ليذهب إلى رسول الله فيقول :

– « بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، ما يحبسك ، فو الله ما تركت مجلساً كنت أجلس فيه بالكفر ، إلا أظهرت فيه الإيمان غير هائب ولا خائف – ألاَ إننا لن نعبد الله سراً بعد اليوم » . .

ويستجيب الرسول لرأيه ، وتخرج الدعوة من مَكْمنها إلى أرض الله الواسعة .

أفهل يكتفى عمر بذلك . .

كلا ، فلا يزال ثَمَّة خطوة تبهر الألباب حقاً .

لقد تذكر « عمر » أنه بالأمس كان كفار قريش يأخذهم الزهو لأن « عمر » يَضرب بيده أصحاب « محمد » . . فليمنح المسلمين اليوم زَهواً مثله . . وهو إذا كان لن يستطيع الآن أن يعلو بقبضته رءوس صناديد قريش وظهورهم ، فليرفع من شأن العذاب الذى يلقاه ضعاف المسلمين بأن يشاركهم فيه ، وليأخذهم الزهو ، بأن « عمر » الجسور العملاق المهيب يُضرب مثلما يضربون ، ويُضطهد كما يضطهدون . . ! ! !

نعم . . لن يظلَّ اضطهاد قريش وقفاً على « بلال » ، و « خبَّاب » ، و « عمار » ، و « صهيب » ، وإخوانهم من الفقراء والمستضعفين ، بل لا بد أن يَصْلاه معهم فتى الفتيان هذا ، الذى تسبقه هيبته ، والذى تنخلع أمام سطوته الأفئدة والقلوب .

لا بد أن يُضرب « عمر » كما يضربون ، وبهذا لا يصير ضربهم وتعذيبهم ذلة تكسر نفوسهم ، وتدغدغ كرامتهم ، وبهذا أيضاً يتم « لعمر » إسلامه ، إذ تم له المساواة مع المسلمين فى دفع الثمن الذى يشترون به راية الله . . . ! !

هكذا فكَّر « ابن الخطاب » . . هكذا فكر صاحب الطبيعة القوية والفطرة السوية .

ولكنْ أنَّى له هذا ، وهو المرهوب الجناب إلى الحد الذى يجعل مجرد التفكير فى مُشَانأته مغامرة خاسرة . . ؟

إذا أراد « عمر » أن يكون الظافر المنتصر ، فلن يُعيه السبيل ، أما أن يكون المضروب المنهزم ، فهذه هى المشكلة الكبرى التى يحتاج الظفر بحلها إلى جهد كبير .

فمن الذى يجرؤ أن يضرب « عمر » فى قريش كلها . . ؟ ؟

ولكنَّ « عمر » قرر أن يرفع من قيمة العذاب الذى يلقاه إخوانه ، بأن يتعرض له ، ويأخذ نصيباً منه .

أجل ، لقد قرر وأراد ، وما دام قد أراد ، فلا بد أن يوجد الطريق . .

ويرسم خُطته ، ويبدأ جولته بأبى جهل ، فيذهب إليه فى داره ويقرع الباب .ويخرج أبو جهل ليجد أمامه « عمر » ، فيغلق الباب دونه .

ويمر بأشراف قريش فى دُورهم متحدياً ، رجاء أن يخوض أحدهم معه معركة يخرج منها بلطمة فى صدره ، أو جرح فى وجهه « ! » ولكنهم جميعاً يتحاشَوْنَه ويتحامونه . .

وأخيراً يقرر أن يلقاهم عند الكعبة وهم مجتمعون هناك ، ولا يكاد يبلغهم حتى يستثيرهم بالحديث .

ولنصغ إليه يروى بقية ما حدث :

يقول رضى الله عنه

- « وثار إلىَّ الناس يضربوننى وأضربهم ، فجاء خالى وقال : ما هذا ؟ . . قالوا : ابن الخطاب ، فقام على الحِجْر وقال : ألا إنى قد أجرتُ ابن أختى ، فانكشف الناس عنى ، فكنت لا أزال أرى الذين يُضربون من المسلمين ، وأنا لا يضربنى أحد ، فقلت : ألا يصيبنى ما يصيبهم ؟ فجئت خالى ، وقلت له : جوارك مردود عليك . . قال : لا تفعل يا ابن أختى . قلت : بل هو ردٌّ عليك قال : ما شئت فافعل ، فما زلتُ أَضرب وأُضْرَبُ حتى أعزَّ الله بنا الإسلام » . .

° ° °

هذا السلوك الباهر الذى يتبدّى من « عمر » ، إنما ينبثق من طبيعة استوفَتْ كل عناصر الكمال ، والسؤدد . طبيعة لا يَزحَم إخلاصها للمسئولية شىء مّا ، ولا يشغلها عن صقل جوهرها شاغل . .

والرجل الذى وقف موقفه هذا أوّل إسلامه ، هو الذى سنلتقى به فيما بعد أميراً للمؤمنين ، وجيوشه تثلُّ سلطان كسرى وقيصر فيصعد المنبر بعد أن دعا المسلمين للاجتماع ، ثم يقول :

— « أيها الناس : لقد رأيتُنى وأنا أرعى غنم خالاتٍ لى من بنى مخزوم نظير قبضة من تمر أو من زبيب » . .

ثم ينزل من على المنبر بين دَهَش المجتمعين وتساؤلهم . .

ويتقدم منه رجل لم يُطق على ما رأى صبراً ، وهو « عبد الرحمن ابن عوف » ويقول له : ما أردتَ إلى هذا يا أمير المؤمنين ؟ ؟

فيجيبه « عمر » :

— « ويحك يا ابن عوف ، خلوت بنفسى فقالت لى : أنت أمير المؤمنين ، وليس بينك وبين الله أحد ، فمن ذا أفضل منك . . ؟ فأردت أن أعرفها قدرها » . .

هذه طبيعة مستقيمة ، ليس بداخلها عِوَج ، ولا تصبر لحظة على ما يحول بينها وبين رؤية الحق واتباعه .

ولقد جعلت هذه الفطرة القويمة صاحبها رجل صدق عظيماً ، لا يبغى على ما يعمل جزاء أو شُكوراً . . إنما يعبر عن طبيعته الممتلئة التى وضعها فى خدمة الله ، ونذَرها لدينه . .

وكلما ملأت الرّحب بنشاطها الفذ ، وقدرتها الهاطلة . .

وكلما أخرجت من خبْئها وثَرائها النفسى الذى لا ينفَد . .

وَكلما نسجتْ لله راية . وهدَّمتْ للشرك قلعة ، وأدَّت لإنسان حقاً . .

كلما فعلتْ هذا ، كان عمر سعيداً جِدَّ سعيد . . ! ! !

الفصل الثاني

ما تقول لربك غدًا؟

لا شىء يميّز الطبائع المتفوقة السوِيَّة ، مثل نأْيها عن الغرور . .

ولو كان ثمَّة رجل ، لا بد للغرور أن يتسوَّر حصونه المنيعة لفرط مزاياه وروعة أمجاده وانتصاراته ، لكان « عمر » . .

فهو يدخل الإسلام فى حفاوة بالغة من الرسول وصحبه .

وهو يرى كيف صار الإسلام ديناً جَهْوَرِيَّ الصوت ، صادح الكلمة ، فى اليوم نفسه الذى اعتنقه فيه .

ويبصر المسلمين الذين كانوا من قبل يَستخفُون من طغاة مكة ، يواجهون اليوم الأذى فى شُموخ ، ويرجُّون مكة بتكبيرهم بعد أن صار « لعمر » بينهم مكان .

ويرى رسول الله ينعته بالفاروق ، بعد أن فرق الله بإسلامه بين الحق والباطل ، وبين الملاينة والمُواجهة .

ويرى نفسه يقترح على رسول الله بعض آرائه ، فلا يوافقه الرسول فحسب ، بل يتنزل به الوحى ، ويصير قُرآناً يُتلى

وفيما بعد . يُضحى خليفة لرسول الله بعد أبى بكر ، وأميراً للمؤمنين ، تتفتح فى أيامه « بوابات » العالم لدين الله ، وتزحم راياته جوَّ السماء فى كل أفق .

كل هذا ، ألا يجد الغرور من خلاله ثغرة ينفذ منها ، إن لم يجد أكثر من الثغرات ؟ ؟ . . !

ومع ذلك ، فلا نكاد نعرف نفساً امتنعت على الغرور وتكسرت أمام حصونها المنيعة كلُّ محاولاته ، مثل نفس هذا الرجل الفرد ، « عمر » . !

فمن أين له هذا . . ؟

لا ريب أن لطبيعته واستعداده الفطرى الأثر الكبير الناجع .

ولا ريب أيضاً فى أن الطريقة التى اتصلت بها هذه الطبيعة بالله قد أفاءت عليها مَدداً لا يفنى ومقدرة لا تتلجلج . وعزوفاً كاملا عن كل ما فى الحياة الدنيا من غرور وزهو .

إن « عمر » نفسه يردُّ إلى الله ، وإلى الدين الذى انتهج نهجه كل ما معه من فضائل ، وهُدًى ، واقتدار . .

ولطالما كان يقول لإخوانه : « لقد كنا ، ولسنا شيئاً مذكوراً حتى أعزنا الله بالإسلام ، فإذا ذهبنا نلتمس العز فى غيره ذللنا » . .

فلننظر كيف كانت علاقة « عمر » بربه . .

لننظر كيف التقت طبيعة قوية . بنُسُك قوى ، ليُنجبا الرجل القوى الأمين .

ولسوف نجد كل تصرفات « عمر » تسير وَفق إجلالٍ لله فريد

أجل ، إن « عمر » لَيخشى ربه خشية ، ويوقره توقيراً ، حتى إنه

ليكاد يذوب ويتحلَّل كلما هَوَّمَتْ حوله من بعيد ومضة من ومضات ربه ذى الجلال والإكرام .

وكان لا يَفْتأ يردد لنفسه هـذا اللحن المهيب : « ما تقـول لربك غـداً » . ؟ !

نعم . . « ما تقول لربك غداً » . . ؟

عبارة قد نتلوها نحن فى دعَةٍ ويُسر ، أما هو فكانت تزلزله زلزالا شديداً . . ! !

يقول الأحنف بن قيس :

– « كنت مع عمر بن الخطاب فلقيه رجل فقال : يا أمير المؤمنين انطلق معى فأعِدْنى على فلان فقد ظلمنى . . فرفع عمر درّته وخفق بها رأس الرجل وقال له : تَدعُون أمير المؤمنين وهو معرَّض لكم ، مقبل عليكم ، حتى إذا شغل بأمر من أمور المسلمين أتيتموه : أعدِنى . . أعدِنى . .

« فانصرف الرجل غضبان أسِفاً ، فقال عمر : علَىَّ بالرجل .

« فلما عاد ، ناوله مِخْفقَته وقال له : خذ واقتصَّ لنفسك منى .

« قال الرجل : لا والله ، ولكنى أدَعُها لله . . وانصرف ، وعدت مع عمر إلى بيته فصلى ركعتين ثم جلس يحاسب نفسه ويقول :

– ابن الخطاب . ؟ كنت وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله . . ثم حملك على رقاب الناس ، فجاءك رجل يستعديك فضربته ، فماذا تقول لربك غداً إذا أتيته » ؟ ! !

• • •

ما تقول لربك غداً . . ؟

فى هذه العبارة ، يتمثل دين عمر ومنهاجه ، وتستمد حياتُه معاييرها وموازينها .

وفيها يتمثل جواز مروره إلى الدنيا ، وجواز مرور الدنيا بكل طيباتها إليه .

فأمامَ كل لقمة شهية .. وأمام كل شربة باردة .. وأمام كل ثوب جديد تَسَّاقط دموعه .. تلك الدموع التى تركت تحت مقلتيه خطين أسودين من فرْط بكائه ، ويصلصل داخل نفسه هذا النذير « ما تقول لربِّك غداً » .. ؟

هذا هو جبّار الجاهلية ، وعملاق الإسلام .

هذا هو أمير المؤمنين الذى تفتحت لأعلامه الخافقات أقطار الدنيا ، واستقبل الناس جيوشه كأنها البُشْريات .

هو ذا ، يؤمُّ الناس فى الصلاة فيسمع بكاءه ونشيجه أصحابُ الصف الأخير .. !

وها هو ذا يعدو ، ويُهرول وراء بعير أفلت من معطنه ، ويلقاه « علىّ ابن أبى طالب » فيسأله : إلى أين يا أمير المؤمنين ؟

فيجيبه : بعيرٌ ندَّ من إبل الصدقة أطلبه .

يقول له « على » : لقد أتعبت الذين سيجيئون بعدك .. !

فيجيبه « عمر » بكلمات مُنهجة :

— « والذى بعث محمداً بالحق ، لو أن عنْزاً ذهبت بشاطئ الفرات ، لأُخِذ بها عمر يوم القيامة » .. !

أكان « عمر » يخاف الله خوف العبد الذى يُرهبه قرع العصا ولَذْع السياط .. ؟

لا . وإنما كان يخشاه خشية الحر الذى يرجو لربه وقاراً ، ويضرع إليه إجلالا وإكباراً ، ويخجل أن يلقاه بتقصير — أى تقصير .. ! !

وهذا هو نشيده دوماً :

— « كنتَ وضيعاً فرفعك الله ، وكنت ضالا فهداك الله ، وكنت ذليلا فأعزك الله ، فما تقول لربك غداً إذا أتيته » .. ؟ !

* * *

ولكن ، لم كل هذه الخشية الضاغطة . والحياء الداهم ؟

إن « عمر » قد تأدَّب على يدى رسول الله أحسن تأدُّب ، وإنه لَيُتابع الرسول فى غير جَنَف أو مَيْل ، وإنه لَذُو نسُك عظيم ، وإنه لَنسيجُ وحدِه فى ورعه ، وإخباته ، وزهده ، وتقواه .

أفلا يُفِئْ هذا على نفسه القلقة كثيراً من الطمأنينة والراحة ؟

بلى يُفِئْ .. لو كان إنساناً آخر غير « عمر » أما هو فلا يرى فى هذا النسُك كله سوى جُهد المُقِلِّ العاجز ، ولا يرى فى توفيق الله له سوى نعمة تستوجب شكراً يليق بها ..

ذات يوم ، يقول لجليسه « أبى موسى الأشعرى » :

— « يا أبا موسى ، هل يَسرُّك أن إسلامنا مع رسول الله وهجرتنا معه ، وشهادتنا ، وعملنا كله يُردّ علينا ، لِقاءَ أن ننجو كَفافاً ، لا لنا ولا علينا » . ؟

فيجيبه أبو موسى « لا والله يا عمر ، فلقد جاهدنا ، وصلَّينا ، وصُمْنا ، وعملنا خيراً كثيراً ، وأسلم على أيدينا خلْق كثير وإنا لنرجو ثواب ذلك » .

فيجيبه « عمر » ودموعه تتحدَّر على وجنتيه كحبَّاتِ لُؤلؤ منثور :